اصل نظرية الاضداد في اللغة العربية

للمستشرق الفرنسي : ر. بلا شير
ترجمة : حامد طاهر (باريس)

لكي يتجه بحثنا نحو آفاق جديدة لم تكشف بعد ، فهذه عدة افكار نجمت عن فحص لقوائم الاضداد في اللغة العربية والواقع انها افكار قليلة ، لان ما جمعناه، مع الاسف لم يكن غزيرا ، كما انه لم يعتمد على التصنيف الذى قام به حاليا عدد من المستشرقين ، وانما على اصل مبحث الاضداد وتاريخه لدى العرب انفسهم، وعلى العموم ، سوف تنحصر دراستنا على المستوى الذى تطور فيه ذلك المبحث ، وكذلك محاولة ادراك الدوافع الذى كانت وراءه ، وفيما يتعلق بهذه النقطة الاخيرة لا يوجد لدينا ، بطبيعة الحال ، سوى التخمينات والفروض .

واذن فلنحاول اولا ان نحدد المجال من الناحية المكانية والجغرافية . فلقد بدا مبحث الاضداد من العراق ولاشك ، وخاصة من مدينة البصرة ، حيث كانت الدراسات النحوية مزدهرة . وفيما يبدو ؛ لم تكن المسالة مفروضة بصورة ملحة حتى تهتم بها مثلا مدرسة الكوفة ايضا . مع انه ينبغى ملاحظة ان احد العلماء العرب الذين سوف نذكرهم هنا ، يتبع ، فى الوقت نفسه ، كلا من مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، وهذا هو ما كان شائعا فى ذلك العصر .

ثم تتابع البحث فى بغداد ، لكنه لم ينحصر فيها اكثر من القرن الحادى عشر الميلادى ، فنحن نراه نشيطا جدا خارج العراق ، ومن الواضح انه فى تلك اللحظة فقط ، لم يعد مبحث الاضداد يقوم على مواد اصلية ، وانما على مصنفات قديمة ، تمت من قبل . وعلى العموم ، فمن الناحية الجغرافية ، يحق القول بأن الدراسة عراقية ، او على الاقل : فى بدايتها .

اما من ناحية التسلسل التاريخى ، فيجب وصفها فى السنوات العشر الاخيرة من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) وعلى امتداد عشر السنوات الاولى من القرن الثالث . وتعتمد هذه التحديدات على اسماء المؤلفين انفسهم ؛ مؤلفى المعاجم والنحاة ، الذين اهتموا بمبحث الاضداد . فالاصمعى فى البداية ، ومواطنه ومعاصره ، ابو زيد الانصارى ، ثم قطرب (المتوفى 206 هجرية) ويعتبر هذا الاخير اكثر اهمية ، مع أن شخصيته ليست معروفة لنا تماما ، غير ان هناك مصدرين مختلفين ، لا يوجد لدينا ادنى شك فى وثاقتهما، يؤكدان انه كان من «المعتزلة» وهذه حقيقة مهمة ، سوف اعود اليها بعد قليل .

ثم فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، نلتقى بشخصية قوية جدا ، هى شخصية ابن السكيت ، صاحب المؤلفات القيمة الكثيرة التى تناولت جوانب متنوعة ، وخاصة ما يتعلق منها بالدراسات المعجمية. ونحن نعلم انه قد اهتم كثيرا بالاختلاف بين الفروق المعنوية للالفاظ ، وانه صاحب كتاب «اللغة» الذى يعتبر دراسة لقيم المصطلحات الداخلية .

وتظهر شخصية اخرى تحتل مكان الصدارة ، هى شخصية ابن الانبارى ، لكن يوجد هنا خطأ . فالواقع ان هناك شخصين مختلفين يحملان اسم ابن الانبارى ، والذى يهمنا هنا هو المتوفى (323 هـ = 934 م) . اما الآخر فهو ابو البركات ابن الانبارى ، الذى سوف يهتم ايضا ، فيما يبدو — لاننى غير متأكد تماما — بمسألة الاضداد . وقد عاش هذا الآخير فى نهاية القرن الرابع وبداية الخامس الهجريين . ثم بالتقائنا بعد ذلك بابن درستويه (ت 347 هـ = 958 م) نجد انفسنا امام «جمّاعين» أو «مصنفين» يعيدون تناول اعمال «الاوائل» بترتيبها او شرحها . وانا الح على هذه النقطة .

وهكذا فقد اظهرت دراسة تتابع المؤلفين فى مبحث الاضداد : ضرورة التفرقة ، بعناية بالغة ، بين جيلين مختلفين : الاول هو جيل الاصمعى والانصارى وقطرب : جيل يعمل على مواد لغوية خام ، يلتقطها ويدرسها ، والثانى جيل يبدأ بالانبارى ، وخاصة ابن درستويه ، ولا يعالج سوى مادة معدة سلفا ، (فيما يتعلق بابن السكيت ، لا يبدو الامر هكذا تماما ، فلدىّ شعور بانه كان اصيلا فى مجالات اخرى ،لكن العناصر المحددة تعوزنى).

هذا اذن فيما يخص الناحيتين : المكانية والزمانية. تبقى المشكلة الاساسية ، وهى الدافع الذى ادّى بهؤلاء العلماء والمعجميين العرب الى ارتياد مجال الاضداد : اىّ افتراضات يمكن ان تطرح ؟

من الطبيعى ، ان الفكرة الاولى التى ترد الى الذهن هى ان الامر لا يعدو ان يكون بحثا اعتباطيا ، نشأ نتيجة مجرد «الفضول العلمى» لمرحلة الاحداث اللغوية ، ولايبقى استبعاد هذا الفرض الذى يمكن ان يكون ملائما بدرجة كبيرة ، فقد كان «الفضول العلمى» او «حب الاطلاع» احدى الميزات التى طبعت ذلك الجيل الرائد ، وبخاصة الاصمعى والانصارى ، فقد كان هؤلاء العلماء ذوى اهتمامات متنوعة جدا ، واستطاعوا ان يقتحموا هذا المجال ،كما اقتحموا مجالات اخرى،غيره، لمجرد الرغبة فى الاطلاع . ومع ذلك ، يمكن القول انه بالنسبة لهؤلاء العلماء ، فى هذا الصدد ، كما لدى غيرهم فى مجالات اخرى ، لا توجد لدينا الوثائق التى يمكنها ان تخبرنا عن حقيقة اهتماماتهم الباطنة ، ولا يعدو ما بين ايدينا من ان يكون مجرد ملاحظات بيوجرافية ، جافة للغاية ، ولايمكن ان نستخلص منها اتجاها مؤكدا ، حتى عندما تشير احدى هذه الملاحظات الى ان واحدا مثل قطرب كان من المعتزلة !

فرض آخر اكثر اهمية ، وهو يرد عرضاً بمناسبة عبارة جاءت فى مقدمة الانبارى عن الاضداد ، حيث يذكر ان تلك الالفاظ ، ذات الدلالات المختلفة او المتعارضة ، تعتبر بالنسبة الى بعض الناس دالة على «النقص» اى الضعف او الخطأ فى اللغة العربية ، التى تعد حينئذ غير قادرة على التعبير بشكل واضح ومحدد عما يراد منها ، فَمَنْ هم هؤلاء « البعض » الذين يتهمون العربية على هذا النحو ؟ يصفهم الانبارى بانهم «اهل البدعة» وكذلك «اهل الجور» و «الضلالة» و «الاستهزاء» اى السخرية . . اولئك الذين كان من شأنهم ان يسخروا من العرب ، وابتداء من هذه العبارة ، يمكن التساؤل عما اذا كانت بداية الاضداد قد جاءت نتيجة اهتمامات مختلطة ، وذلك فيما يتعلق بموجة «الشعوبية» التى كان هدفها اظهار نقص لغة الفاتحين والحكام ؟ إن بقية عبارة الانبارى تبين كيف أمكن لهذا الدليل الموجه الى اللغة العربية ان يتحول على ايدى المدافعين عنها الى دليل فى صالحها . فليس وجود الاضداد بحال ما من عوامل الغموض ، كما يدعى المفترون ، وانما هو احد عوامل الغنى : انه احدى فرائد اللغة العربية . لان اللفظ اذا كان له معنيان متضادان عموما ، فهو فى نص واحد بعينه ، لا يدل الى على معنى واحد فقط منهما . وبذلك فلا مجال لأي غموض فى التعبير عن الافكار .

وحول هذه النقطة ، يوجد لدينا نص آخر هام . لكنه اقل وضوحا ، ذلك هو ما يلخص رأى ابن درستويه. فهو يعارض تماما نظرية الاضداد ، وينفى اى وجود لها فى اللغة . وهنا ينبغى الاعتراف بأن الامور تتعقد ، فابن درستويه من اصل فارسى ، واذا كنا قد قبلنا ان الامر يعنى هجوما من الشعوبية ضد الناطقين بالعربية، فيمكن التساؤل : لماذا يتخذ هذا الفارسى ذلك الموقف النافى بصورة قاطعة على هذا النحو ؟ غير ان الامر يمكن ان يندرج ببساطة فى ظاهرة عامة، غالبا ما نلتقى بها فى تاريخ الاسلام : وهى «فَرْط العروبة» لدى عدد كبير جدا من «غير العرب» فيما يتعلق بالتمسك باللغة العربية والدفاع عنها . واكبر مثال على ذلك هو «ابن قتيبة» ، ذو الاصل الفارسى ، والذى عاش فى بيئة فارسية ، ثم اصبح هو المدافع الغيور عما امكن ان نطلق عليه فيما بعد ذلك بوقت متأخر «النزعة العربية» او «العروبة» .

ومع ذلك ، فان ماسبق يجعلنا نحتفظ فيما يتعلق بالفرض الثانى الذى طرحناه ، لانه من الصعب فعلا الاعتراف له بقاعدة صلبة ؛ واعتقد اننا ينبغى ان نستبعده وبالتحديد بناء على ملاحظة الانبارى التى يذكر فيها ان الاضداد كانت ذريعة للهجوم على اللغة العربية . وهنا يوجد واقع ذو طابع شعورى استطاع ان يلعب دوره . فالى اى حد ؟ يبقى مجال البحث مفتوحا . . .

فرض ثالث ، ظهر لنا انه يستحق الكثير من الاهتمام ، وقد جعلنا نقوم باجراء عدة استقراءات ، ليست كثيرة مع الاسف ، كما كان ينبغى أن يحدث ، لكنها ليست اقل من أن تقدم بعض النتائج ذات الدلالات الخاصة : بما أن قطربا ، الذى يعتبر من اهم منشئى هذا المبحث ، كان معتزليا ، فقد تساءلنا عما اذا كان ينبغى البحث عن اصل هذا المبحث فى التفسير الدينى ، وبصفة خاصة لدى المعتزلة . لقد قام داؤيد كوهين بجمع كل الاضداد الواردة فى القرآن ، وامكن ان تبرز ملاحظة هامة : فبقدر ما تم من تحقيقات ، وبما انها من الطبيعى محدودة جدا ومبعثرة ، يبدو (وانا اصر على كلمة : يبدو) أن اهل السنة لم يهتموا كثيرا بهذا الجانب فى اثناء تفسيرهم للقرآن .

وهكذا نلاحظ عند الطبرى ، اكبر مفسرى اهل السنة ، صمتاً مطلقا حول آية ، سوف تكون على العكس مجالا لرسالة طويلة لدى فخر الدين الرازى . وهذا فيما يتعلق بفعل (أسرّ) الوارد فى الآية (رقم 52 سورة يونس) (واسروا الندامة لما راوا العذاب) فالمشركون او الذين ظلموا يتقبلون العذاب الذى يستحقونه فى يوم الحساب ، وعندئذ تقول الآية (واسروا الندامة) اسر : يعنى اخفى فى اعماق قلبه او كتم ، وهذا فى الواقع هو المعنى الذى ندركه لاول وهلة ، وهو المعنى الذى فسره الطبرى دون أن يقف عنده طويلا ، لكنه لدى المفسرين الآخرين ، يتحول من «اخفوا الندم فى نفوسهم» الى «اظهروا الاسف والتوبة» وهذا منطقى . لان هؤلاء المشركين المحكوم عليهم بالعذاب ، يتاسفون بصورة طبيعية فى تلك اللحظة الهائلة من انهم لم يسلموا او يؤمنوا . وهكذا ، فى الوقت الذى لم يشر الطبرى بكلمة واحدة الى هذا الموضوع ، نجد فخر الدين الرازى (القرن السابع / الثامن الهجرى) يقدم لنا شروحا مفصلة حول مفهوم «الضد» ، ويؤكد ان فعل (اسروا) فى الآية يدل على معنى (أظهروا وأعلنوا) بصورة طبيعية، وانه يحمل ايضا فى المقابل معنى (اخفوا وكتموا) .

كذلك التقينا خلال استقرائنا بفقرة هامة جدا ، حيث لم يأخذ فعل (خاف) معنى (خشى) وانما معنى (تأكد من) . وذلك فيما يتعلق بالآية القرآنية التى تتحدث عن النساء اللاتى يخشى أزواجهن نشوزهن (سورة النساء — الآية رقم 34) . فعلى الرغم من ان الآية تحتوى على فعل (خاف) الذى يعنى بكل بداهة (خشى) — نجد انه — ربما لاسباب فقهية حيث يحتاج كل حكم الى دليل فى الخلاف المثار — يأخذ معنى (تأكد من) وبذلك لايكفى الزوج أن يخاف ، وانما يصبح متأكدا . . .

مثال اخير من نفس النوع ، وهو الخاص بفعل (ظن) ، ففى المفهوم العادى يأخذ الفعل معنى (التفكير بتردد بين أمرين)، ولكن المفسرين يعطونه فى آيات اخرى من القرآن معنى (اليه يقين) منتزعين منه اى امكانية فى التردد بين أمرين . . .

والواقع أن هذه الالفاظ — الاضداد ، الواردة فى القرآن ، تعتبر فى مجموعها بسيطة جدا ، لكن التفسير الح عليها وافسدها لكى يجعلها تعبر عن امر ذى علاقة بها ، وليس عن حقيقتها الحية فى اللغة ، لان الذى كان يهمه هو تعضيد هذا الفرض او ذاك . . فكثيرا ما نلتقى فى التفسير بآية قرآنية مفسرة بمعنى ، ثم فى موضع آخر بمعنى معارض له تماما . ومن الغريب ان كلا التفسيرين يجرى تحت سلطة طائفة واحدة . وكان من يحاول ابطال تفسير من هذا النوع ، يتعرض لاتهامه بالبدعة ، ومخالفة اهل السنة ، وربما عرض حياته نفسها للخطر .

واذن ، فهل تتبع ظاهرة الاضداد ، كتعبير عن الخلاف بين اهل السنة و المعتزلة ، النقاش الدائر فى محيط علم الكلام ؟ هنا تبدو امكانية ارتياد هذا البحث .

وهكذا حاولت فى تعداد الدوافع لمبحث الاضداد ، ان اضع هذا المبحث فى افضل مكان له ، فى المستوى الدينى الذى بدا منه ، وانه فلينتشر البحث الى مصطلحات اخرى غير تلك المصطلحات العادية التى ذكرناها من أمثال (ظن وخاف وأسر) ، ومع ذلك ، فان الفرض المعتزلى يظل فرضا خالصا .

ينبغى ان يتجه البحث ناحية التفسير المعتزلى الخالص ، وليس فقط كما حدث بالفعل لدى فخر الدين الرازى ، الذى تعرض دون شك لتاثير المعتزلة ، وان كان احيانا يستخدم براهينهم ضدهم ، كما يجب ان يتجه

البحث ايضا الى التفسير الظاهرى ، وخاصة عند ابن حزم ، ومهما يكن من شيء ، فسوف يصبح من اللازم القيام باستقراء شامل للاضداد التى وردت فى القرآن ، والسيطرة عليها بمنهج يصنف مظاهرها فى كل من الجدل ، والمعاملات ، لكى تتحدد اهميتها ودلالتها الحقيقية ·

ما النتيجـــة ؟

على الرغم من نقص دراستنا ، يبدو ممكنا ان نضع كفرض من بين الدوافع التى ادت الى مبحث الاضداد : ان جزءا كبيرا منه يرجع الى اهتمامات خاصة بتفسير القرآن ، وانا على علم بأن القائمة التى بين ايدينا حاليا تدل على أن مكان الاضداد فى القرآن لم يدرس بعد ·

ومن ناحية اخـــرى ، فاذا توجهنا الـــى دراسة الاضداد ، فلابد ان نضع بجانـــب المصدر القرآنـــى ، المصدر البدوى الذى خرجت منه كثير من الالفاظ المتضادة ، الخاصة بحياة الصحراء ، وهيآتها ، وحيواناتها ·

وعلى سبيل المثال ، يتمثـــل النمـــوذج الكامـــل للاضداد فى لفظة «جـــون» التى تـــدل علـــى الابيض والاسود · ففى اللغة الحية نفسها يدل الجون علـــى شيء معتم أو مظلم «ينزع نحو الحمرة» أو كما تقـــول العبارة العربية الجيدة « مشرب بحمرة » ! لكن هناك بيتا للفرزدق يصف فيه قصرا فيقول «وجون عليه جص» اى : شيء اسود مطلىّ بجص ! وقال النحويـــون ! ان الناس ليعتقدون ان هذا يدل على الابيض . لكنهم لم يفهموا أن هذه هى الحالة «الاشد تطابقا» على مفهوم التضـــاد ·

ومع ذلك ، فلا يعنى الامر أن دافع التفسير كان هو الوحيد · لقد وجد بجانبه تلك الدوافع الأخرى التى ذكرناها : حـــب الاطـــلاع ، وضرورة الـــرد علـــى افتراءات الشعوبية ، وانـــا اعتقد أن الامثلة التـــى اوردتها ذات دلالة كافية ، فالذى يبدو بوضوح ، انه فى مجال التفسير ، كلما تمسكنا بالمعنى الحرفى للنص ، لاتبرز امامنا مشكلة الاضداد ، لكـــن عندما ندخـــل اعتبارات لا علاقة لها بالمعنى الخام الاولىّ للنص ، فاننا نجد انفسنا مضطرين الى وضع تفسيرات أخرى ، فلماذا اذن نترك هذا الجانب الملائم من التفسير ؟

وحاصل القول انه فى آية (اسروا الندامة) مثلا ، يبدو اكثر منطقيا وملائمة لخط التناسق القرآنى بصفة عامة ، ان نعطى فعل (اسر) ـــ على الـــرغم مـــن الوضوح المعجمى له ـــ معنى يختلف عن «كتمـــوا فى اعماق قلوبهم» !